(٢)

موقف عثمان بن معمر من دعوة محمد بن عبد الوهاب

مراجعات من خلال رسالتي ابن عفالق[١]

(١) طبع ضمن كتاب «بحوث علمية محكمة» للمؤلف بمكتبة الرشد (١٤٢٩هـ).

كتب العلامة حمد الجاسر -رحمه الله- بحثًا فريدًا بعنوان: «المرأة في حياة إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب»(١)، ساق فيه نماذج رائعة من سيرة النساء اللاتي كان لهن دور متميز في مسيرة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- أمثال موضي بنت وهطان زوج الإمام محمد بن سعود، والجوهرة بنت عبد الله بن معمر زوج الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله جميعًا-.

ثم عرض الجاسر موقف عثمان بن معمر (ت١١٦٣هـ) -أمير العيينة- من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد تميَّز هذا العرض بالموضوعية والتحقيق. وخلاصة ما كتبه الجاسر في هذه القضية ما يأتي:

أ- قبول عثمان بن معمر الدعوة الإصلاحية، فما إن قدم الشيخ محمد بن عبد الوهاب العيينة حتىٰ ناصره عثمان؛ فهدم قبة زيد بن الخطاب ﵁، وقطع الأشجار التي يتبرَّك بها الجهال، وأقام الحدود(٢).

ب- تكالب الأعداء علىٰ عثمان، وعلىٰ رأسهم سليمان بن محمد آل عريعر شيخ بني خالد وأمير الأحساء الذي أرسل إلىٰ عثمان كتابًا يتهدده فيه إن لم يقتل الشيخ أو يخرجه من بلده، وأنه إن لم يفعل ذلك قطع خراجه عنده في الأحساء، وكان خراجًا كثيرًا(٣).

ج- رأىٰ ابن معمر أن مفارقة الشيخ العيينة هي أخف الضررين، فعمد إلىٰ ارتكاب أخف الضررين من أجل تفويت أعلاهما، فقال ابن معمر للشيخ محمد

(١) نشر هذا البحث ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط٢، ١٤١١هـ (١/ ١٦١-١٨٨).

(٢) انظر: تفصيل ذلك في: تاريخ ابن غنام، ط٣، الرياض (١/ ٧٨-٧٩).

(٣) انظر: تاريخ ابن غنام (١/ ٨٠)، وتاريخ ابن بشر (١/ ٤٠).

بن عبد الوهاب: «إن سليمان أمرنا بقتلك، ولا نقدر إغضابه ولا مخالفة أمره؛ لأنه لا طاقة لنا بحربه، وليس من الشيم أن نؤذيك في بلدنا مع علمك وقرابتك[١]، فشأنك ونفسك»[٢].

د- قدم عثمان بن معمر علىٰ الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدرعية، وندم علىٰ ما فعل، وطلب منه الرجوع معه، فقال الشيخ: ليس هذا إليَّ، وإنما هو إلىٰ محمد بن سعود، فأتىٰ عثمان محمدًا، فأبىٰ عليه. ثم وفد عثمان علىٰ الشيخ سنة ١١٥٨هـ وبايعه علىٰ الجهاد، ونصرة دين الله تعالىٰ، وشارك في غزوات عدة[٣].

هـ- وقع عثمان بن معمر في تصرفات مشكلة، وأحوال موهمة -كما هي مبسوطة في موضعها- فسوغت لبعضهم اتهامه بالخيانة، فآل الأمر إلىٰ قتله.

وكما قال الأستاذ حمد الجاسر في خاتمة هذه القضية: «ويكاد متتبع تاريخ القضية أن يجزم بأنه لا يد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ولا للإمام محمد بن سعود في قتل ذلك الرجل، وأن الأمر وقع في وقت لم تستقر فيه أوضاع الدولة الناشئة، ولم تثبت دعائم الدعوة، ومن المعروف أن كل حركة من حركات التغيير الاجتماعية يصاحب قيامها فوضىٰ وعدم انضباط في كثير من أمورها قبل استقرارها»[٤].

وأما هذه الورقة فآمل أن تكون امتدادًا لما سطَّره العلامة حمد الجاسر في تجلية موقف عثمان بن معمر من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فلقد عانىٰ ابن معمر ضغطًا سياسيًّا واقتصاديًّا من قِبل أمير الأحساء، وهو الشيء الذي لم يجده

(١) المقصود بالقرابة ههنا: زواج الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالجوهرة بنت عبد الله بن معمر عمة عثمان بن معمر.
(٢) تاريخ ابن بشر (١/ ٤٠).
(٣) انظر: تاريخ ابن غنام (١/ ٨٢، ٩٤)، وتاريخ ابن بشر (١/ ٤٣، ٤٨).
(٤) المرأة في حياة إمام الدعوة (ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب) (١/ ١٧٩).

الإمام محمد بن سعود حاكم الدرعية آنذاك الذي كان قويًّا؛ ما جعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب يتجه إليه. وفي الوقت نفسه كابد ابن معمر أنواعًا من الشبهات والاعتراضات من قبل علماء الأحساء، وألمح إلىٰ ذلك الإمام عبد الله بن فيصل بن تركي والشيخ عبد الرحمن بن حسن وابنه الشيخ عبد اللطيف -رحمهم الله- بقولهم: «وأتىٰ الشيخ محمد بن عبد الوهاب العيينة، وأظهر الدعوة بها، وقبل منه كثير منهم، حتىٰ رئيسهم عثمان بن حمد بن معمر، ثم إن أهل الأحساء -وهم خاصة العلماء- أنكروا دعوته وكتبوا شبهات تنبئ عن جهلهم وضلالهم، وأغروا به شيخ بني خالد...»[(١)].

ويبدو أن محمد بن عبد الرحمن بن عفالق[(٢)] أشد هؤلاء خصومة وطعنًا في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث ألَّف رسالة وجهها إلىٰ الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وجعل عنوانها «تهكم المقلدين في مدعي تجديد الدين»[(٣)].

وقد تضمنت هذه الرسالة أسئلة تعجيزية تهكمية[(٤)]، وبأسلوب يغلب عليه التحدي والتوهين من شأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

كما كانت مؤلفات ابن عفالق متداولة بين خصوم الدعوة في نجد كما جاء في رسالة لابن عبَّاد يقول فيها: «وكذلك لما أتاهم كتاب ابن عفالق الذي أرسله

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، ط٥، ١٤١٦هـ (١٤/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن عفالق الحنبلي، ولد في الأحساء، وتوفي فيها (١١٠٠- ١١٦٤) له مؤلفات في الفقه والفلك، كما أن له مؤلفات ضد الدعوة السلفية. انظر: تحفة المستفيد، (ص٣٩٦)، وعلماء نجد (٣/ ٨١٨).

(٣) وهي رسالة مخطوطة في مكتبة الجامعة الملكية في تبونجن بألمانيا، برقم (١٣٥/ ٣)، وقد حصلت على صورة منها.

(٤) انظر: ق٥.

المويس[١] لابن إسماعيل[٢] وقدم به عليكم العام[٣]، وقرأه علىٰ جماعتكم يزعم فيه أن التوحيد دين ابن تيمية، وأنه لما أفتىٰ به كفره العلماء وقامت عليه القيامة»[٤].

ويقول في موضع آخر: «فأما ابن عبد اللطيف وابن عفالق وابن مطلق فحشوا بالزبيل أعني: سبابة التوحيد واستحلال دم من صدَّق به، أو أنكر الشرك»[٥].

وههنا رسالتان خطيتان بعثهما ابن عفالق لابن معمر، وهما مهمتان في تجلية موقف ابن معمر من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وما بذله ابن عفالق من جهد وعناء في سبيل التشكيك في دعوة الشيخ والطعن فيها، وتحريضه ابن معمر علىٰ التخلي عن اتباع هذه الدعوة[٦]، كما تتضمن هذه الرسالة ما عليه ابن معمر

---

(١) المويس من أشد خصوم الدعوة في نجد. انظر: مؤلفات الشيخ، (٥/ ٢٦، ٢٧، ١٢٧، ٢٠٥، ٣٠٠).

(٢) ابن إسماعيل من خصوم الدعوة في نجد. مؤلفات الشيخ، (٥/ ٢٦، ٢٧، ١٢٧، ٢٠٥، ٣٠٠).

(٣) يعني: السنة الماضية.

(٤) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عبد العزيز الرومي وآخرون، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (٥/ ٢٠).

(٥) المرجع السابق (٥/ ٢٠٦).

(٦) وسبب معاداة ابن عفالق للشيخ محمد بن عبد الوهاب ربما تعود إلى الضغوط من أمير الأحساء الذي مارس الضغوط ذاتها على ابن معمر، ويلحظ أيضًا -من خلال هاتين الرسالتين- أن خلافًا عقديًا بينهما، فابن عفالق يصادم أصولًا مهمة في التوحيد، فإذا كان الشيخ محمد يقرر أن طلب الشفاعة من الأموات شرك؛ لأن الدعاء حق لله تعالى وحده لا شريك له، فإن ابن عفالق يجيز طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، وإذا كان الذبح والنذر من العبادات التي يجب أن تصرف لله تعالى وحده لا شريك له، فمن ذبح أو نذر لغير الله فقد تلبَّس بالشرك الأكبر من الملة، كما قرره الشيخ في كتبه المشهورة، مثل: كتاب التوحيد، ورسالة كشف الشبهات ونحوهما، بخلاف ابن عفالق الذي يهون من ذلك؛ فيجعل الذبح والنذر لغير الله شركًا أصغر، وإذا كان الشيخ محمد له عناية فائقة بتوحيد العبادة؛ لأنه الغاية من خلق الجن والإنس، وأنه مفتاح دعوة الرسل، وأول واجب على المكلف، إلا أن ابن عفالق على طريقة المتكلمين الذين يجعلون توحيد الربوبية هو الغاية والمقصود.

من حرص علىٰ دعوة ابن عفالق إلىٰ التوحيد، والنصح له والإشفاق عليه، كما سيأتي مفصَّلًا.

وهاتان الرسالتان موجودتان في مكتبة الدولة في برلين بألمانيا، وهما ضمن مجموع يتكون من تلك الرسالتين، ورسالة «المشكاة المضيئة في الرد علىٰ الوهابية» لابن السويدي[١]، ويبلغ مجموع أوراقها سبعًا وثلاثين ورقة، وفي كل صفحة سبعة عشر سطرًا، وقد كتبتا بخط واضح جميل، دون أن يُذكر عنوان للرسالتين -ولا تاريخ نسخهما- وإنما جاء في مطلع الرسالة الأولىٰ ما يأتي: «قال الشيخ الفاضل محمد بن عفالق الحنبلي رادًّا لعثمان بن معمر الوهابي»[٢].

فيظهر من هذه العبارة أن عثمان بن معمر قد بعث من قبل كتابًا لابن عفالق، فكتب ابن عفالق هذا الرد علىٰ ذلك الكتاب. وجاء في مطلع الرسالة الثانية: «هذه الرسالة جواب لرسالة أرسلها عثمان بن معمر».

ويبدو أن الرسالتين قد اختصرتا من أصل سابق، حيث تكررت في مواطن عدة عبارة: «إلىٰ أن قال [المؤلف]». كما لم تُذكر سنة تأليفهما، لكن جاء في هذا المخطوط ما قد يبين أن تأليفهما ما بين سنة ١١٥٩هـ وسنة مقتل عثمان بن معمر ١١٦٣هـ، حيث قال ابن عفالق لابن معمر: «ومن أخبره عن قتلىٰ أهل الرياض أنهم في النار وقتلىٰ تابعيه في الجنة؟!»[٣].

(١) اطلعت على هذه الرسالة فإذا هي نسخة مكررة من كتاب «فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبد الوهاب» لسليمان بن عبد الوهاب، لكن قد تزيد عليه بألفاظ نابية، انظر مثلًا: ق٢، ق٣، ق٢٥.

(٢) يظهر لي أن هذه اللفظة (الوهابي) من إضافة الناسخ؛ لأن الرسالة قيد الدراسة منسوخة من أصل سابق.

(٣) ق٤٩.

فيبدو أن تأليفهما بعد انتقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلىٰ الدرعية، وقيام القتال بين أنصار الدعوة وخصومها الذي بدأ سنة ١١٥٩هـ مع أهل الرياض(١).

وخلاصة محتوىٰ الرسالتين ما يأتي:

- تضمنت الرسالتان جملة من الأكاذيب المكشوفة والمفتريات المفتعلة، كقوله: إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب خصَّ الرسالة المحمدية بأقوام معينين دون سائر الناس. يقول ابن عفالق: «هذا الرجل خصَّ رسالة رسول الله ﷺ بمن يصوم ويحج ويتعبد، فكأنه يقول: وأما إلىٰ غيرهم فلا؛ لأنه ذكر في رسائله إلينا: إن الله تعالىٰ أرسل محمدًا رسوله إلىٰ ناس يتعبدون ويصومون ويحجون»(٢).

فانظر إلىٰ هذا الكلام الذي غلب عليه الهوىٰ، فقال: أرسله إلىٰ ناس، ولم يقل: إلىٰ جميع الخلق من الجن والإنس(٣).

- وزعم ابن عفالق أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- انتقص الرسول ﷺ وادَّعىٰ النبوة بلسان الحال. ومن ذلك قوله: «وأما هزلكم برسول الله وتنقيصكم إياه فوالله ما تركتم من التنقيص شيئًا... فكيف بمن ضاهىٰ النبوة وادَّعاها حالًا لا مقالًا؟»(٤).

- وافترىٰ ابن عفالق، فاتهم الشيخ بتكفير صاحب الكبيرة، وأنه يكفِّر بأدنىٰ شرك أصغر، فحكىٰ ابن عفالق: أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كفَّر من لم يصر علىٰ كبيرة... بل كفَّر من لم يكفره(٥).

---

(١) انظر: تاريخ ابن غنام (١/ ٩١)، وتاريخ ابن بشر (١/ ٥٠).
(٢) انظر: مقدمة رسالة كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب.
(٣) ق٣٩، وانظر: ق٦٥.
(٤) ق٦٣، وانظر: ق٤٢، ق٤٩، ق٥٩.
(٥) ق٤٣.

– وقال ابن عفالق: «الشرك في العبادة شرك أصغر»[١].

– ويقول أيضًا: «من قواعد ابن عبد الوهاب أنه يكفِّر المسلمين بأدنىٰ شرك أصغر من شرك العبادة»[٢].

– كما حوت الرسالتان سبًّا لاذعًا وكلامًا مقذعًا تجاه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومن ذلك قوله: «اعلم أن هذا الرجل ليس له علم، بل جاهل جامد أو جاحد معاند»[٣]. ويقول في موضع آخر: «حتىٰ أتىٰ ابن عبد الوهاب الضال المضل الذي هو أضل من حمار أهله»[٤].

– وقع ابن عفالق في مغالطات علمية ومزالق جلية، فلم يفرِّق بين تكفير المطلق وتكفير المعين[٥]، وجعل طلب الشفاعة من النبي ﷺ بعد وفاته كطلبها منه في حياته[٦]. وخلط فسوَّىٰ بين التوسل والاستغاثة بالنبي[٧]، وزعم أن الذبح والنذر لغير الله شرك أصغر[٨]، وجعل تقرير توحيد الربوبية هو المقصود والغاية، كما تجده مبسوطًا في تلكما الرسالتين.

ويمكن أن نتصور موقف عثمان بن معمر من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– بعد استعراضٍ للرسالتين من خلال العناصر الآتية:

(١) ق٥٩، وانظر: ق٦٨.
(٢) ق٣٩.
(٣) ق٥٣.
(٤) ق٦٢.
(٥) انظر: ق٣٩.
(٦) انظر: ق٤٣.
(٧) انظر: ق٤٤.
(٨) انظر: ق٥٧، ق٦١، ق٦٥.

أ- تعرض عثمان بن معمر لقدر هائل من الإشكالات والاعتراضات أوردها ابن عفالق في هاتين الرسالتين، ولا يخفىٰ أن إثارة الشبهات وإيراد الاعتراضات ليس أمرًا عسيرًا، لا سيما إن كانت الشبهة صادرةً عن أحد المنتسبين للعلم -كابن عفالق- وواردةً علىٰ من لم يكن عالمًا كابن معمر والقائل: «كثرة الكلام ما أفهمه ولا لي فهم بابن القيم وابن تيمية ولا عمرو ولا زيد»[(١)].

ب- نلحظ أن ابن عفالق -في هاتين الرسالتين- ألحَّ إلحاحًا شديدًا علىٰ ابن معمر في التخلي عن هذه الدعوة، والتأليب علىٰ الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتنوعت أساليبه في سبيل ذلك؛ فتارة يسعىٰ إلىٰ إثارة عاطفة ابن معمر تجاه من قُتل، فيقول: «أسألك بالله يا عثمان، كيف تقول غدًا يوم الحشر والمعاد إذا خاصمك بين يدي الله تعالىٰ من قتلتموه ظلمًا؟... أتقولون لرب السماوات والأرض: أفتىٰ لنا ابن عبد الوهاب، وأغوانا الشيطان؟»[(٢)].

وتارة يحرِّضه علىٰ الشيخ بدعوىٰ أنه استأثر بالرئاسة دونكم، فيقول: «أراد الرئاسة عليكم، فأدركها بذهاب دينكم ودنياكم، وضرب بعضكم ببعض»[(٣)].

وتارة يلمز ابن معمر بالتبعية المطلقة للشيخ محمد بن عبد الوهاب فيقول: «فلا يخفاك أن ابن عبد الوهاب رام أمرًا، وفهم أنه لا يدركه إلا بك، فلابسك وتمكن من عقلك وذهنك»[(٤)].

ويقول في موضع آخر: «وأرسلتُ لك ما فيه الكفاية مع علمي أن ابن عبد الوهاب لا يأخذ به ولا يعمل به، وأنتم له تبع في كل ما يقول»[(٥)].

(١) ق٦٤.
(٢) ق٥٨.
(٣) ق٥٩.
(٤) ق٥٩.
(٥) ق٦٣.

ج- مع أن ابن عفالق أجلب علىٰ ابن معمر بشبهاته ودعاويه، ومع هذا الإلحاح المتكرر والرسائل المتتابعة إلا أن عثمان بن معمر كان متماسكًا ثابتًا علىٰ عقيدة التوحيد التي جددها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بل بادر عثمان إلىٰ دعوة ابن عفالق والنصح له، والإشفاق عليه كما يُلحظ من النصوص الآتية:

- حكىٰ ابن عفالق مقالة ابن معمر: «وأما قولك: لكم اثنتا عشرة سنة تعالجون هذا الأمر، فأنكرتموه أولًا، وثبتكم فيه المطاوعة يقولون: هذا حق، والذي يسوَّىٰ في الأحساء شرك، وفي غيرها كذلك، وتقول: عذرهم أنهم ما يقدرون علىٰ إزالته، وأنهم خابرينه قبل ابن عبد الوهاب»[١].

- وتبدو لغة التحدي في قول ابن معمر لابن عفالق: «ويظهر عالم يواجه ابن عبد الوهاب»[٢].

لكن ابن عفالق تنصَّل وحاد عن ذلك إلىٰ الإفك والبهتان، فقال: «هذا محال، والسبب في هذا أن العلماء يتخاصمون في أحكام الشريعة في الحرام والحلال، وأما من قال: أدعوكم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وادعىٰ النبوة... فبماذا يجاوبونه؟»[٣].

- ويسعىٰ عثمان بن معمر إلىٰ دعوة بن عفالق، ويحضه علىٰ تأمل كلامه، قائلًا: «وأنت برِّق في كلامي وتأمله ولا تجاوبني إلا بمثله»[٤].

ويتجلىٰ نصحه وإشفاقه علىٰ ابن عفالق، إذ يقول عثمان: «ثمرة الكلام مني إليك محبة وشفقة، وأن هذا الأمر راعني، وخفتُ عليك مثل ما أخاف علىٰ نفسي،

(١) ق٥٨.
(٢) ق٦٣.
(٣) ق٦٣.
(٤) ق٦٤.

فاعرف أني ناصح لك ومشفق عليك وخائف، لا من فقر ولا من عذاب دنيا، بل خائف عليك من غضب الجبار وسجن النار، فاعلم أنها نصيحة لك»[١].

وأخيرًا فإن لعثمان جهدًا ظاهرًا في نصرة الدعوة من خلال إزالة مظاهر الوثنية في العيينة، وإقامة شرع الله تعالىٰ، كما بذل وسعًا في بيان الدعوة -كما جاء في النقول السابقة- فلئن كان عثمان بن معمر قابلًا للدعوة، إلا أن المعارض قوي، فقد تكالب علىٰ ابن معمر تهديد أمير الأحساء وتخويفه بقطع العطاء، وإرجاف ابن عفالق -ونحوه- بالشبهات والاعتراضات، وكيد جلساء السوء الذين خوَّفوه من صاحب الأحساء[٢].

ويبدو أن ذلك المعارض قد أوقعه في شيء من التردد والاضطراب؛ ما جعل بعض المؤرخين يتهمونه بالخيانة والنفاق. وإنَّ المنصف -تجاه هذه القضية- يحذر من الانسياق في اتهام ابن معمر أو تجريمه، كما يحذر أيضًا من اتهام العلماء والمؤرخين الذين انتقدوا ابن معمر، فرموه -متأولين- بالنفاق، وكما قال ابن القيم رحمه الله: «إن الرجل إذا نَسَب المسلم إلىٰ النفاق والكفر متأولًا وغضبًا لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه، فإنه لا يكفرُ بذلك بل لا يأثم به، بل يُثاب علىٰ نيته وقصده»[٣].

ونقول في خاتمة هذه المقالة: ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا، فالله سبحانه أعلم، ورحمته أوسع، وبالله التوفيق.

---

(١) ق٦٤.
(٢) انظر: تاريخ ابن بشر (١/ ٤٠).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٢٣).